تأليه الذات والتألّه بالمسيح بحسب التقليد الأرثوذكسي

البروفسور جورج مانتزاريذس

نقلها إلى العربية الأب أنطوان ملكي

في السياسة، يتحدث أرسطو عن نهم الإنسان وعدم حدود رغباته: "طبيعة الرغبة هي أن تكون غير محدودة، ومعظم البشر يعيشون ليُتخَموا".[٢] العالم ككل غير مناسب تمامًا لإشباع رغبات الإنسان. اليومَ يتّضح هذا أكثر حيث يوسّع الإنسان غزواته على الكوكب بأسره وحتى أبعد من ذلك دون الشعور بالسعادة أو تحقيق المزيد. في الواقع، نرى اليوم أن تراكم الفتوحات هذا يزيد فقط تعطش الإنسان للاستحواذ. إشباع رغبات الإنسان يزيد فعلياً من جشعه.

قد تبدو هذه الظاهرة متناقضة، إذا نظرنا إليها من وجهة نظر الأنثروبولوجيا الدهرية. ولكن بالنسبة للأنثروبولوجيا المسيحية، فإن الوضع ليس ممكنًا وحسب بل هو طبيعي. في التعاليم المسيحية، الإنسان مخلوق "على صورة الله ومثاله"، ما يعني أنّ العلامات المميزة للألوهة، كالأبدية والكمال والخلود وما إلى ذلك، والتي تميّز الإله غير المخلوق والمتسامي موجودة أيضًا في الإنسان، رغم أنه مخلوق ومحدود معاً. لذلك، فإن المفارقة لا تتمحور في رغبات الإنسان وتطلعاته، بل هي في طبيعته وبُنيَته. هذا لا يعني أن الإنسان يطمح إلى اللامحدود والكامل والأبدي بل بالأحرى أنه على الرغم من كونه مخلوقاً وبالتالي فانياً، فإنه لا يستطيع أن ينجز المشروع الذي خُلق من أجله دون أن يُرشَدَ إلى ما هو أبعد من المحدود والمتحول؛ أي دون أن يتألّه.

الإنسان بالفطرة يشتهي التألّه. باتباع هذا الطموح يحقق الإنسان مهمته ويحقق الغرض من وجوده. كما يلاحظ القديس مكسيموس المعترف: "لقد جعَلَنا الله نشارك في الطبيعة الإلهية وأبديّتها ونصبح مثله من خلال التقديس بالنعمة."[٣] في الواقع ، هذه الرغبة في أن يصير إلهاً هي التي أدت إلى إتلاف الإنسان بتحويله إلى فاسد وشيطاني. إنها، في الواقع، أساس كل عمل بشري يعاقب السقوط ويديمه. في قطعة المجد في إينوس سحر عيد البشارة، كتب كاتب الترانيم الأرثوذكسي: "لقد خاب آدم قديماً فلم يصِر إلهاً كما كان قد اشتهى. فصار الإله إنساناً لكي يصير آدم إلهاً".

جاهد الإنسان لأن يتألّه ولكنه ضُلّل لأنه حاول الوصول إلى هدفه بدون الله. أراد أن يكون المؤلف وليس المتلقي لتألّهه. ولكن ما لم يحققه الإنسان بتخليه عن الله، وهبه الله إياه بتجسده. صار الله إنسانًا لتأليه الإنسان. "لأنه هو نفسه قد صار إنسانًا لكي نتألّه."[٤] إن جسد المسيح كجسد الكلمة المتجسد هو نقطة الاتصال بين الله والإنسان التي تفتح الطريق للتألّه. وقد عبّر القديس أثناسيوس الكبير عن هذا الأمر بإيجاز عندما كتب: "بينما بعد سقوط آدم كلهم انجرفوا إلى هلاكهم، فإن أول من يخلص ويؤلّه هو جسد المسيح كجسد الكلمة المتجسد. إلى هذا الحد،"يتابع القديس أثناسيوس،"كوننا نشترك معه بنفس المادة فهو يخلصنا، أي أن الرب يقودنا إلى ملكوت السماوات وإلى أبيه أيضًا."[٥] بتأليه طبيعة المسيح البشرية يتم تأليه "أولى ثمار طبيعتنا" وخلق جذر جديد قادر على نقل الحياة والخلود إلى جميع الفروع. يشارك كلٌّ من المؤمنين الذين لُقّحوا في نعمة الله وحياته. "ما هو الكائن المخلوق الذي يمكن أن ينال حقًا كل قوة الروح التي لا حدود لها باستثناء من وُلد في بطن عذراء، لأن الروح القدس هو الذي كان حاضرًا، وقوة العلي التي ظللته؟ لهذا نال كل ملء الألوهة. أما بالنسبة لنا، فنحن جميعًا ننال من ملئه."[٦] نظرًا لأن المسيح قد اتّخذ من أمه العذراء مريم طبيعته البشرية، فإن العذراء في نفس

الوقت هي أم جميع البشر الذين هم أعضاء في جسد المسيح. بهذه الطريقة يشترك الناس مع الله ويصلّون إلى التألّه في المسيح كأبناء لمريم العذراء. ولهذا السبب، قدم القديس غريغوريوس بالاماس العذراء كنموذج لصعود المسيحي على درب التألّه[٧].

المسيح ليس كاتب مسار التألّه وحسب، بل هو أيضًا دليل الإنسان على طول هذا المسار. يتجلّى مسار التألّه الحقيقي في نسك المسيح الذي بلغ ذروته بموته المتواضع على الصليب، والذي كان وفقًا لمجد الله الآب. إن الإنسان الذي خلق من العدم مدعو إلى إدراك اقتقار نقطة بدايته لكي يعبد الله باعتباره الكائن الشخصي الذي نَبَذ كلّ شيء ولم يأخذ شيئًا لنفسه. بكونه كائناً شخصياً ولا يمتلك شيئًا بمفرده، يمكن للإنسان أن يتلقّى ذاتية الله الخاص ويمتلكها، التي هي نموذجه الأصلي. عندما يقدم الإنسان نفسه للمسيح، يتحول إلى نمط وجود يتوافق مع حياة المسيح.

وهكذا، فإن تألّه الإنسان يفترض مسبقًا إماتةَ أنانيةِ الإنسان. بقدر ما يتخلّى الإنسان عن نفسه من أجل المسيح[٨]، بقدر ما يجابه إرادته لكي يخدم إرادة الله ويميت محبته لذاته من أجل محبة الله والقريب، فهو يساهم في تقدّسه. إنه يعمل على تغيير جوهره الداخلي، وهي عملية لا يمكن أن تتحقق إلا في جسد المسيح، أي في الكنيسة بنعمة الروح القدس. بهذه الطريقة يقبل المسيحي الموت في المسيح ويتغلّب عليه. ما يبدأ كواجبٍ في الإنسان يصبح طوعياً، و"تُعَلَّق الطبيعة باختياره الحر في أن يموت عن طيب خاطر للعالم".[٩] أحد الشيوخ (ستاريتز)، قبل موته مباشرة، سؤل إن كان أراد الموت، فأجاب: "لم أتعلّم التواضع بعد."[١٠] لقد أدرك أنه لم يقتنِ بعد تواضع المسيح الذي لا يوصف. الكمال في التواضع هو الكمال في مواجهة الموت، هذا هو التألّه في المسيح. "الكل يحتاج إلى عبور سر الموت من أجل تحقيق شَبَه أكبر بالمسيح. عِبر هذه العتبة، التي ما زلنا نجهلها، يدعونا إلهنا وأبونا إلى عالم اليوم غير المألوف".[١١]

إن تألّه الإنسان الأناني هو نقيض التألّه في المسيح. فيما يبدو أن الأول مبني على التواضع والنسك، إلا أنه في الواقع متجذر في الاكتفاء الذاتي وتمجيد الذات. إنه تأليه للقوى الطبيعية وعلاقاتها المتبادلة، للقدرات التي يعتقد الإنسان أنه ولّدها بتطوره الأخلاقي والروحي. لكن الإنسان لا يستطيع أن يمنح نفسه أي شيء لم ينشأ مع نفسه. لا يقدر الإنسان أن يقدّم لنفسه ما يفوق طبيعته! الإنسان مخلوق وبالتالي فانٍ. لهذا السبب، التألّه الذي يسعى إليه خارج الله يعمل ضمن الحدود التي وضعها الموت ويظهره الموت ككذبة. ومع ذلك، فإن هذا هو التألّه الذي يفضّله الإنسان عمومًا لأنه لا يتطلب من المرء نبذ العالم ويبدو أنه يقول "نعم" للحياة.

التألّه، كما يعرّفه القديس ديونيسيوس الأريوباغيتي في كتاباته هو "استيعاب واتحاد مع الله قدر الإمكان" [١٢]، هو هبة من الله غير المخلوق للإنسان المخلوق. وكما كتب القديس مكسيموس المعترف "نختبر التألّه بالنعمة، لكننا لسنا علّة تألّهنا، لأنه يفوق الطبيعة. في الحقيقة، ليس في طبيعتنا القدرة على اقتبال التألّه"[١٣] و"لا يمكن لأي مخلوق أن يخلق بطبيعته الخاصّة تألّهه الخاص"[١٤]. إن موهبة التألّه متاحة للإنسان لأن الله قد جاء، في المسيح كإنسان مخلوق في العالم وقدّم جسده الذي هو الكنيسة. عمل المسيح هو عمل الثالوث الأقدس. بما أن الله واحد من ثلاثة، كذلك عمل الثالوث الأقدس واحد من ثلاثة. في المسيح يلخص الله الإنسان ويقوده إلى مجد مملكته. يتجلى هذا في حياة المسيح، ولا سيما في تجليه وصعوده.

يحتلّ تجلي المسيح مكانة مركزية في اللاهوت والعبادة الأرثوذكسيين. إن تفسيره الصحيح هو أمر حاسم لفهمٍ دقيقٍ للتعاليم الأرثوذكسية عن التألّه. بحسب التقليد الأرثوذكسي، لم يكن التجلي تغييرًا مؤقتًا في شخص المسيح، ولم يكن ظهور إشعاع معين لم يكن موجودًا من قبل. بل بالأحرى، كان التجلي القدرة التي مُنحت للرسل على رؤية المجد الطبيعي لألوهية المسيح، ولكن بشكل جزئي، هذا المجد الذي كان موجوداً منذ البداية في

شخصه الإلهي البشري. كتب القديس يوحنا الدمشقي: "لقد تجلّى، ولم يتلقَّ شيئًا لم يكن لديه، بل أظهر نفسه للتلاميذ على حقيقته، وفتح أعينهم وجعل الأعمى يبصر" [١٥].

من ناحية أخرى، بصعود المسيح يتحقق بالكامل عمل التدبير الإلهي وتأليه الإنسان. صعود المسيح، كما في حياته الأرضية كلها، لا يؤثّر على الفرد وحسب، بل يظهِر خصوصية ومصير الإنسان المتجدد: "ما صار الرب إليه، صاره من أجلنا... والحياة التي عاشها، عاشها من أجلنا ... بالنسبة لنا، لقد قام وصعد إلى السماء، مُجهزًا قيامتنا وصعودنا إلى الدهر والأبد."[١٦] صعود المسيح يحرر الطبيعة البشرية من قَيْدها إلى الحاجة ويرفعها إلى مجد الله الآب بنعمة الروح القدس: "أقامنا الله مع المسيح حتى تموت خطايانا... لقد أقامنا من بين الأموات، وقد أُعطِينا مكانًا في السماء بيسوع المسيح"[١٧].

تعلّم كتابات آباء الكنيسة أن المسيح هو مؤلّف الخليقة وموجِزها: "كل شيء به كان"[١٨]. عند تحليل هذا المقطع، يلاحظ القديس نيكولاس كاباسيلاس: "لقد تمّ بالفعل تكوين الطبيعة البشرية منذ البداية في توقّع الإنسان الجديد؛ وفي ضوء الإنسان الجديد أيضًا، تكوَّن العقل والرغبة؛ عندنا عقل حتى نعرف المسيح، ونرغب في أن نركض إليه، وقد منحنا الذاكرة لننتبه إليه، لأنه النموذج الأصلي لخليقتنا. في الواقع ، ليس آدم القديم نموذجَ الجديد، بل آدم الجديد هو نموذج القديم"[١٩]. من دون شك، تكميل الإنسان والكون يكمن في المسيح. كل جهاد بشري خريستولوجي في التحليل النهائي، على الرغم من الاختلافات والتنوعات، على الرغم من الفشل والانحرافات. يسعى الإنسان وراء المسيح بالعقل والإرادة معاً، بالذاكرة والخيال. ولكن، مثل آدم، يضلّ الإنسان عندما يحاول أن يدرك مهمته في الوجود الحقيقي باتّباع نموذج الإنسان الأول الذي سقط. والنتيجة هي تحريف للإنجاز الذي يتوق إليه الإنسان حقًا. إن إدراك الإنسان، الذي يرتبط بالتألّه، غير ممكن بدون المسيح الإله الإنسان. ومع ذلك، لكي يتحقق في المسيح، يجب على الإنسان أن يساهم بإيمانه وجهوده. إن الإنسان مدعو لتقديم نفسه للمسيح والتعاون بالنعمة الإلهية حتى يتحقق كماله الأخلاقي والروحي. بدون هذه الشروط المسبقة، لن يكون تألّه الإنسان ممكنًا. إذا كان تأليه الذات هو سبب خطيئةٍ للإنسان بدون المسيح، فإن سبب الخطيئة بالنسبة للمسيحي كان ولا يزال هو الفشل في التعاون مع نعمة الروح القدس المؤلّهة التي يقدّمها الله في المسيح. وعلى الرغم من أن الإنسان الذي يخطأ دون أن يسمع عن المسيح وكنيسته قد يحاول أن يبرر نفسه لأنه يصل إلى شيء أعلى مما يبلغه الآخرون من حوله، فإن المسيحي يشعر بالثقل الكامل والواقع المأساوي لخطيئته بشدة أكثر من غيره لأن السمو الذي تَعِد به الخطيئة هو في الواقع بعيد المنال.

يميّز تقليد الكنيسة ثلاث مراحل في التقدم نحو الكمال الروحي: أ) التطهّر، ب) الاستنارة ، ج) التألّه. في المرحلة الأولى، يجاهد المؤمنون لتطهير نفوسهم من الأهواء. في المرحلة الثانية، تدرك أذهان المؤمنين أفكار الكائنات التي تقود إلى الكلمة. والمرحلة الثالثة هي الاتحاد الصوفي للمؤمنين بالله، أي التقديس[٢٠]. يجب ألا يُفهم التمييز بين المراحل الثلاث بطريقة آلية، بل يجب أن يُفهم على أنه صورة لتقدم الإنسان في الحياة في المسيح. علاوة على ذلك، وبفضل الله، يمكن لشخص واحد أن يصل على الفور إلى مرحلة معينة يفشل الآخرون في بلوغها بعد جهادات طويلة. لهذا أهمية خاصة بالنسبة للمؤمنين، فالتحول إلى وعاء للنعمة الإلهية هو السعي بلا هوادة من أجلها. ليست النعمة الإلهية متاحةً للمؤمنين كهدية مخلوقة. يقيم الله غير المخلوق علاقة شخصية مع الإنسان الذي يشارك في نعمة روح الله غير المخلوقة. هذا لا يعني أن نعمة الروح القدس يمكن امتلاكها على طريقة شيء مادي ما في العالم أو بعض التجريد في العقل. لا، لا يمكن حماية نعمة الروح القدس إلا من خلال الحفاظ على الشركة مع الله الثالوث. يتواصل الإنسان بنعمة إلهية غير مخلوقة؛ هو ليس متلقيًا سلبيًا للهبات الإلهية. بالاشتراك في نعمة الروح القدس غير المخلوقة والعيش كعضو في جسد المسيح الكنسي، يظل الإنسان في شركة

مع الله الشخصي في الثالوث ومع إخوته من البشر. تنعكس هذه الحقيقة بشكل طبيعي في الحياة اليومية للمؤمنين. وبقدر ما تتحقق هذه الحياة في المسيح وجسده، تشرق حقيقة وأصالة حياة المؤمنين.

من المؤكد أن الروح موجود في كل مكان وليس بعيدًا عن أي شخص. لكن الأشخاص الخاضعين للخطيئة يبتعدون عن روح الله بسلوكهم: "لأن الخطيئة هي الابتعاد عن الله، لا من حيث المكان بل بالأحرى بطريقة الوجود"[٢١]. لإظهار قوة الروح القدس، من الضروري الحفاظ على الطهارة الأخلاقية. "لأن الروح القدس حاضر للجميع"، كما يلاحظ القديس باسيليوس الكبير، "أما بالنسبة للمتطهرين من الأهواء، فهو يكشف عن قوته التي يتلقّاها بوفرة أولئك الذين حزنوا على لوث خطاياهم"[٢٢]. وعلاوة على ذلك:"الحياة غير المنظمة غير صالحة لتلقي القوة الإلهية"[٢٣]. النجاسة الأخلاقية تُظلِم الإنسان وتجعله غريبًا عن نعمة الروح القدس[٢٤]. لهذا، الفضيلة هي شرط لا غنى عنه للحياة الروحية. بدون الفضيلة لا يمكن للإنسان أن يصبح وعاءً للروح القدس: "لهذا يطلب منا أن نكافح ببسالة من أجل عطية النعمة، لأن عطية النعمة تُمنح بقدر ما يشارك المرء في آلام الذين يتألمون. إن النعمة حقًا هي التي تعطي الحياة الأبدية وفرحًا لا يوصف في السماء، ومحبة الألم من أجل الإيمان هي التي تجعل المرء مستحقًا أن ينال عطايا النعمة والفرح"[٢٥].

ترفع نعمة الروح القدس إلى الكمال محبة الإنسان لله والقريب عندما تُعلَن له. من سمات التقليد الآبائي أن الفضائل المسيحية الأساسية الثلاث - الإيمان والرجاء والمحبة - ترتبط بمراحل التقدم على التوالي في الحياة الروحية الثلاث. وهكذا فإن الإيمان والرجاء مرتبطان بالمرحلتين الأوليين، بينما المحبة مرتبطة بالمرحلة الثالثة، مرحلة التألّه[٢٦]. لا شيء يجعل الإنسان أكثر تقبّلاً لنعمة التقديس من المحبة. والدليل الواضح على وجود النعمة المؤلّهة في الإنسان هو كثرة محبّته التي تتجلّى في محبة القريب[٢٧].

إن الله، الذي تملأ حياته الإنسانَ بالتألّه، ليس فردًا واحدًا، بل ثلاثة أقانيم في شركة. وصورة الله لا يقتصر أثرها في الإنسان على الأخير كفرد، بل تمتد إلى كل الطبيعة البشرية وتغطي كل التعامل الاجتماعي والشخصي. إذن، ليس التألّه عملاً أو امتيازًا للفرد، بل هو حدث كنسي. التألّه هو نتيجة جهود المؤمنين نحو الكمال كأعضاء في جسد المسيح، أي الكنيسة، ولهذا السبب يُشار إليها باسم "شركة التقديس"[٢٨].

ليست شركة التألّه نظامًا للمبادئ ولا هي مؤسسة، فهي ليست سلسلة من القيم الموضوعية، ولا هي شيء يمكن تجسيمه. شركة التقديس هي شركة أشخاص. وبما أنها شركة أشخاص، فهي شركة محبّة وحرية، شركة عطاء وكمال مطلق على الصورة الإلهية وبمشاركة الله الثالوثي. ليس الشخص عكسَ المجموعة والمجموعة ليست خاضعة للشخص. حقيقة الموهبة لا تقلل من ملئها، لأن هذا الملء هو عنصر أساسي في الموهبة. إنه ملء لا كمسألة كميّة، لأنه لا يمكن قياسه. الفرادة في التعددية والتعددية في الفرادة.

يجمع الثالوث الكبير وغير القابل للانقسام الإنسانَ في المجد الإلهي بدافع المحبة و "عمل الصلاح". ثيوفيلوس الأنطاكي صاغ هذه الحقيقة بإيجاز: "الله، الكلمة، الحكمة، الإنسان"[٢٩]. في هذه الشركة الإلهية البشرية، يوجد اختلاف جوهري، على الرغم من أنه في التحليل النهائي، الله والإنسان منفصلان، أي هناك فرق بين المخلوق وغير المخلوق لا يمكن إلغاؤه. الله غير مخلوق ويبقى. لكن الله غير المخلوق، يتّخذ ويؤلّه الطبيعة البشرية المخلوقة في المسيح بنعمة الروح القدس، يتّخذ ويؤلّه الإنسان بأكمله بنعمته غير المخلوقة في شركة التقديس. وأيضًا، فإنّ كل ما أُعطي للطبيعة البشرية في المسيح ينتقل إلى جميع الأشخاص الذين يقبلون المسيح ويعيشون كأعضاء في جسده. يصير الإنسان مثل المسيح. ولكن بينما المسيح هو "الله بالطبيعة" و"الإنسان حسب الصلاح"، يظل الإنسان "إنسانًا بالطبيعة" ويصبح "إلهًا بالنعمة"[٣٠].

إن تألّه الإنسان، الذي يحدث في الكنيسة كشركة تألّه، ذو طابع أخروي. و"مؤسسات الكنيسة"، كما أشار القديس باسيليوس الكبير، ترشد المؤمنين إلى الابتعاد باستمرار عن روح "الزمان الحاضر" والتوجّه نحو "الآتي"[٣١]. يتجلّى ملء التألّه في المقطع "من نعمة الإيمان إلى النعمة الظاهرة"[٣٢]، بحيث يُقابل الله "وجهًا لوجه"[٣٣]. ولكن بالفعل خلال فترة "نعمة الإيمان"، وهي مرحلة هذه الحياة الحاضرة، يتمتّع المؤمنون باختبار "النعمة بالنظر". يكتب القديس يوحنا الدمشقي: "لأننا الآن أبناء الله وما سنكون لم يظهر بعد. نحن نعلم أنه عندما يأتي هذا الوقت سنكون مثله، وسنراه كما هو "[٣٤]. الحياة في المسيح اختبارية. يصِف القديس سمعان اللاهوتي الجديد فكرة إمكانية أن يحصل المؤمنون خلال الحياة الحالية على نعمة الروح القدس "بدون معرفة" أو "عن غير قصد" بأنها عدم إيمان وتجديف. وكما يشير، إذا كانت مواهب الروح القدس "تتحقق فينا بدون علمنا، بدون شعورنا بأي شيء، فمن الواضح أننا لا نَعِي الحياة الأبدية التي تتدفق فينا وتبقى في داخلنا، ولا نحن نعاين نور الروح القدس، بل على العكس نبقى أمواتًا وعميانًا وعادمي الحسّ، في البداية وفي الحاضر. لذلك، يكون باطلاً هو رجاؤنا وتعبنا عديم الفائدة، لأننا نعيش في الموت ولا ندرك الحياة الأبدية".

إن مجد الله يُختَبَر في هذه الحياة، لكنه يفترض مسبقًا طهارة قلب الإنسان:"قال المسيح أن أَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ يُعَايِنُونَ اللهَ "[٣٥]. "لا شكّ أنه عند بلوغ الطهارة تتبع المعاينة... إذا تحققت هذه الطهارة بالفعل في الآن وهنا، فإن معاينتها موجودة هنا والآن، ولكن إنْ قلتَ إن المعاينة لا تتحقق إلا بعد الموت، فإن هذا التطهّر يكون فقط في الآخرة، وهكذا لن نبلغ معاينة الله أبدًا، لأننا بعد الموت لن نكون قادرين على السعي في الطهارة"[٣٦]. مَن يختبر مجد الله يتجلّى. يصبح مثل الإله بالكامل. يعيش الله غير المخلوق ويعمل في طبيعة الإنسان المخلوقة. كما لاحظ القديس غريغوريوس بالاماس: " يحيا المسيح ويتكلّم في بولس مع أن بولس هو الذي يحيا ويتكلّم. وبنفس الطريقة يعمل بطرس الموت ويعطي الحياة، مع أن الله والله وحده يهِبُ الحياة وينزعها"[٣٧]. ما يتبع ذلك هو أن الإنسان المؤلَّه لا يفتخر بفضائله وأعماله الصالحة. أفعال وفضائل كلّ واحد هي في النهاية نتيجة النعمة الإلهية التي تعمل فيه[٣٨].

يصير الإنسان المتألّه نوراً للعالم[٣٩]. يتلقى النور وينشره. ليس له نورٌ متولدٌ ذاتيًا، بل هو يتلقّى النور. هو ليس مصدره، بل هو متلقّيه ومرسِله. من دون توقّف عن كونه إنسانًا مخلوقًا، هو ينال بالنعمة كلّ ما هو لله غير المخلوق[٤٠]. وهكذا يتقدم الإنسان نحو الكمال اللامحدود واللانهائي. بما أن الله غير محدود، فإن تطور الإنسان المحتمل أيضًا هو بلا نهاية[٤١]. كونه صَديقًا لله وإلهاً بالنعمة، فالإنسان إلى حد ما حرّ من حدود المكان والزمان. إنه يصير "بلا بداية ولا نهاية، يكفّ عن سلوك حياة مقيّدة بالزمن ولا يعود يرتبك بتقلبات الحياة، بل يسلك في حياة أبدية إلهية لا يطغى عليها الموت لأن في داخلها يعيش الكلمة[٤٢]. على هذا المنوال، التألّه، الذي يبدأ بتألّه الطبيعة البشرية للمسيح، يُمنَح كهدية لكل إنسان. تتجلى هذه الهبة بنعمة الروح القدس في مجرى الحياة الحاضرة وتتجلى في كمالها في الحياة الآتية. لا يتحوّل الفرد وحدة حسابية من أجل إظهار الكل، بل ينكشف كفريدٍ غير قابل للاستبدال. في الفرد، يُقدَّم الملء ويظهر. إنه سر الإله الثالوثي وعطيّته: "كُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي... وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ. أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ"[٤٣].

تشير محاولة الإنسان لتأليه ذاته إلى اتجاه مخالف تمامًا للتألّه في المسيح. ومع ذلك، فإن تأليه الذات هو اتجاه غالبية البشر. لا يسعى المتألّهون إلى أي نوع من الموهبة، بل يرغبون في فكرة موارِبة تلخّص كل الإنجازات البشرية الممكنة. يُستخدَم الأشخاص كوحدات حسابية للتعبير عن الكل. وبتأليه الكلّ هذا، تختفي حرية الفرد وفرادته. في الواقع، تأليه الذات هو فلسفة الإنسان الخارق وهو يطابق أشكال الشمولية المختلفة التي في ظلها وجدت نفسَها حضارتنا مقيدة.

اليوم قد وصل سعي الإنسان الجبّار إلى تأليه الذات إلى طريق مسدود. بتغريب الشخص البشري وتحويله إلى مجرد رقم وترس مجهول في آلة معقدة وغير شخصية وغير قابلة للسيطرة، فإن الدافع إلى تأليه الذات يقود العالم نحو الاغتراب والفناء. يتقدّم الصنم الذي ضحّى من أجله الإنسان بأهدافه الشخصية ليبتلع الجنس البشري بأكمله. في مواجهة هذا المأزق الرهيب، تكرر الكنيسة، بقوة وبطريقة ثابتة، تعليمَها الأبدي عن تألّه الإنسان في المسيح. التألّه لا يتمّ بتدمير الشخص. يتحقق التألّه بالإدراك الكامل للإنسان كصورة لله من خلالها تستعلن حقيقة مطلَقَة غير محدودة، بلا بداية ولا نهاية، عن حياة الله وكينونته. يتحقق هذا التألّه دائمًا مع الأعضاء الآخرين في الكنيسة التي هي حقًا جسد المسيح وأيقونة الثالوث القدّوس.

باسم الآب والابن والروح القدس. آمين.

[1] Originally published as “LA DÉIFICATION DE L’HOMME,” Contacts 40 (1988): 6-18.
[2] Aristotle, Politics II, 1267 B, 3-5.
[3] Chapitres divers 1.42, PG 90.1193 D.
[4] St. Athanasius the Great, On the Incarnation 54.3, PG 25, 192 B.
[5] Against the Arians, 2.61, PG 26.277 B.
[6] St. Gregory Palamas, Defense of the Holy Hesychasts 3.1.34, trans. J. Meyendorff, Paris 1959, p. 624. Cf. Colossians 2.9 and John 1.16.
[7] Cf. Phil. 11.9, Ephesians 1.21.
[8] Cf. Matthew 10.39; Luke 14.26.
[9] St. Maximos the Confessor, On the Our Father, PG 90.904 A.
[10] Cf. Archimandrite Spohrony, Voir Dieu tel qu’il est, Geneva, 1984, p. 82.
[11] Ibid., p. 49.
[12] St. Dionysius the Areopagite, On the Ecclesiastical Hierarchy 1.3, PG 3.376 A.
[13] St. Maximos the Confessor, Chapitres Divers 1.55, PG 90.1209 C.
[14] Chapitres Divers 1.74, PG 90.1212 A.
[15] Homily On the Transfiguration 12, PG 96.564 C.
[16] St. Gregory Palamas, Homily 21, PG 151.277 AB.
[17] Ephesians 1.5-6.
[18] Colossians 1.16.
[19] The Life in Christ 6, PG 150.680 AB.
[20] For more details on the stages of progression toward spiritual perfection, cf. K. Rahner, “Über das Problem des Stufeniveges zur christlichen Vollendung,” in Schriften zur Theologie, tome 2. Einsiedeln, 1956, pp. 11-34.
[21] St. Photios the Great, A Amphilique 170, PG 101.865 A.
[22] St. Basil the Great, Commentary on Isaiah, preface 3, PG 30, 121 C.
[23] Idem., PG 30, 124 A.
[24] “Indeed the energy, grave and divine power present everywhere is imparticipable and is as absent for those who by their impurity are unfit to receive the light.” St. Gregory Palamas, Against Akindynos 5.27.118, ed. P. Chrestou, Gregory Palamas, vol. 3, p. 37.
[25] St. Gregory of Nyssa, On the Plan of God, ed. W. Jaeger, vol. 8.1, p. 46.
[26] Cf. St. Maximos the Confessor, Chapitres divers 5.93, PG 90, 1388 CD.
[27] St. Maximos the Confessor, Mystagogy 24, PG 91, 713 A.
[28] Cf. St. Gregory Palamas, Apodictic Treatise 2.78, Works, vol. 1, p. 149.
[29] A Autolycus 2.15.
[30] St. Symeon the New Theologian, Ethical Treatises 10.731-33, ed. J. Darrouzè, Sources Chrétiennes vol. 129, p. 313.
[31] On the Holy Spirit 66, PG 32, 192 C.
[32] St. Maximos the Confessor, Mystagogy 24, PG 91, 713 A.
[33] I Cor. 13.12.
[34] I John 3.2.
[35] Matthew 5.8.

[36] St. Symeon the New Theologian, Ethical Treatises 5.115-25, p. 89.
[37] On the Divine and Deifying Communion 20, Works, vol. 2, p.154.
[38] “Any virtue we possess is found in us because God works it in us.” St. Gregory Palamas, Homily 33, PG 151.416 D.
[39] Matthew 5.14.
[40] “All that belongs to God belongs also to deified man by grace without him being one with God’s essence.” St. Maximos the Confessor, Questions to Thalassios 61, Commentary 16, PG 90.44 D.
[41] Cf. St. Gregory of Nyssa, Life of Moses, PG 404.44 A.
[42] St. Maximos the Confessor, Ambigua, PG 91.1144 C.
[43] John 17.10, 22-23.